الباب الأول

فى ذكر ملك العرب
الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب

obeikandl.com

obeikandl.com

[١] **قال الشيخ أبو المحاسن:** بلغنى عن ذى فضل غير آسن[١] ، إنه كان فيما غبر من الزمان قيل[٢] من الأقيال؛ غزير الأفضال، عزيز الأمثال، وارث المعارف، حائز الفضائل واللطائف، وافر السيادة كامل السعادة، ذو حكم مطاع وجند وأتباع، وممالك واسعة ذات أطراف شاسعة، تحت أوامره ملوك عِدَّة. ذو سطوات ونجدة، وله من الأولاد الذكور خمسة أنفار؛ كل بالسيادة مذكور، وبالعلم والحِلم والحكم مشهور ومشكور، متوشح[٣] للسلطنة، متولٍ من والده مكانا من الأمكنة، وكان أسعدهم عند أبيه، وهو متميز على إخوته وذويه، سمسى المنظر[٤] أياسى المخبر[٥]، ذا فهم مصيب، واسمه فى فضله حسيب؛ قد حصل أنواعا من العلوم وأدركها من طريقى المنطوق والمفهوم، وكان لهذا الفضل الجسيم يدنى بين الصغير والكبير الحكيم.

فلما دعا أباهم داعى الرحيل، وعكَّم[٦] إلى دار البقاء أجمال التحميل، استولى على السرير[٧] أكبر أولاده، وأطاعه إخوته ورؤوس أمرائه وأجناده، وصار السعد يراقبه والملك بلسان الحال يخاطبه :

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَّ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوَى إِلَيهِ كَوَاكِبٌ

واستمر إخوته فى خدمته مغتنمين أيادى طاعته، رافلين فى خلع محبته

---

(١) أسن الماء، أى تغير طعمه ولونه ورائحته، وفضل غير آسن لم تشبه شائبة .

(٢) القَيْل: الملك من ملوك حمير يتقيل من قبله من ملوكهم، أى يشبه .

(٣) مؤهل وجدير للحكم .

(٤) سمسى المنظر: بهى الطلعة .

(٥) أياسى المخبر: الفطن الذكى .

(٦) عكم المتاع: جمعه وشده بثوب .

(٧) السرير، قصد به العرش، أى الحكم .

ومودته، ومضى على ذلك برهة وهم فى أرغد عيش ونزهة، ثم إنه حصل فى خواطر الإخوه ما خطر فى خواطر الأعداء[1] من الجفوة، وقلوب الحساد من الصد والنبوة[2]، فداخلتهم النفاسة[3]، وطلبوا كأخيهم الرياسة، فقلبوا لأخيهم ظهر المجن[4]، وأظهر كلّ ما أكمن، وقال فيه ما أجن[5]، وأراد شق العصا، وإن يشهر عنه أنه عصى .

غير أن أخاهم الحكيم تفكر فى هذا الأمر الوخيم، وأمعن فيه النظر، وساورته الوساس والفكر، فإنه وإن كان أغزرهم ذكاء وأوفرهم وفاء، فهو أصغرهم عمرا وأحقرهم قدرا، لا طاقة له على الاستبداد ولا أن ينحاز إلى أحد من ذوى العتاد، إذ الانحياز إلى أحدهم ترجيح بلا مرجح، وتصحيح لأحد التأويلين بلا مصحح، فأداه اجتهاده إلى الانخذال وتقليد مذهب الاعتزال[6]، والقول بوجوب رعاية الأصلح، ومن أمكنه العزلة خصوصا فى زمن الفتنة فقد أفلح.

فأخذ يفكر فى تعاطى أسباب الخلاص، وكيفية التقصى من عهده هذا الاقتصاص، واستنهض الفكرة الحائرة لتطفر[7] به من سور هذه الدائرة، وتأخذ به على جهة واحدة إلى أن ينجلى غبار هذه المناكدة، ثم اتبع الكتاب فى مشاورة الأصحاب فاستشار ثقة من أهل المقة[8]، وعرض عليه العزلة، وكيف يتمكن من هذه النعمة الجزلة .

---

(١) الأعداء .
(٢) الجفاء .
(٣) أى المنافسة على الحكم، ممزوجة بالحقد .
(٤) أى أظهروا له الغلظة، وقلة الحياء فى القول .
(٥) ما خفى
(٦) مذهب الاعتزال، إشارة إلى المعتزلة: وهى فرقة كلامية، اعتمد أصحابها على المنطق والقياس فى مناقشة القضايا الكلامية، ومن أهم قضاياهم: القول بحرية الاختيار، وخلق القرآن، وقضايا التوحيد والعدل [الفرق بين الفرق ص١٤] .
(٧) أى لتفز به .
(٨) الصيانة .

فقال له، بعد أن استصوب رأيه: طريق التوصل إلى الانفراد ياذا الدراية أن تستأذن فى تأليف تصنيف وترصيف تأليف[1]؛ يشتمل على فنون من الحكمة، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة، ولطائف التهذيب وأخلاق العباد، ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد، وتتوفر به مكارم الأخلاق والشيم، وعوالى تهذيب النفس، وظرائف الفضل والحكم. فيظهر بذلك غزارة علمك، ويشتهر بين الخاص والعام نباهة فضلك وحلمك، ولا يقف أحد فى طريقك، ولا يقدر أحد أن يتصدى لتعويقك، ويحصل بذلك فوائد جمة أدناها الخلاص من ورطة هذه الغمة، إلى أن ينجلى دجاها[2] وتتجلى شمس الاستقامة وضحاها.

فاستقر رأى الحكيم حسيب؛ على العمل بهذا الرأى المصيب، ثم توكل على الله واعتمده وتوجه إلى مقصده، ودخل غير مرتبك على الملك، وقبل الأرض ووقف فى مقام العرض، وذكر ما عزم عليه أو توجه قصده إليه، بعبارة رقيقة وألفاظ رشيقة فتأمل الملك فى خطابه، وتوقف فى جوابه.

وكان للملك وزير، ذو فضل غزير، فى غاية الحصافة والمعرفة والظرافة، إن لطف كان رأفة، وإن كان كشف آفة، بعيد الغور[3]. إن رفع أبلغ إلى الثريا، وإن وضع أنزل إلى الثور[4] بينه وبين الحكيم من سالف العهد القديم عداوة مؤكدة، وشدة مؤبدة، وتحاسد الأكفاء غل قمل[5]، وعداوة النظراء جرح لا يندمل. فبلغه ما أنهى الحكيم إلى مسامع الملك الكريم ؛

---

(١) ترتيب .

(٢) ظلمتها .

(٣) عميق الفكر .

(٤) الثور، أحد أبراج السماء .

(٥) غل قمل، مثل يضرب فى شدة العداوة، وأصله أنهم كانوا يغلون الأسير وعليه الشعر فيقمل .

فتصدى للمعارضة، وتهيأ للمعاكسة والمناقضة وأقبل يرفل[1] فـى ثـوب المكر، وقد شد دهاء الختل والختر[2] حتى وقف فى مقامه واستطرد إلى قضية الحكيم فى كلامه، فأجرى الملك كلام أخيه واستشار الوزير فيه، فاغتنم الفرصة وأراد إلقاءه فى غصة[3] بإيراد مثل قصد به ايذاءه وقصه.

ثم قال: أما ما قصده الحكيم من العزلة؛ فهو رأى قويم وفكر مستقيم؛ لأن الأعداء إذا تفرقوا تشققوا، ومتى قلوا ذلوا، وقد قيل :

وَمَا بِكَثِيْرٍ ألف خلٍ وَصَاحِـبٍ وَإِنَّ عَـدواً وَاحـداً الكَثِيْـرُ

وإذا نقص من أعداء الملك واحد، سيما مثل اللئيم حسيب الحكيم؛ فهى نعمة طائلة، وسعادة واصلة، ودولة مستصحبة. وكما قيل: نعمة غير مترقبة.

ويتوصل من ذلك إلـى تشتيت أمرهم الحالك[4]، وتصارم[5] أقوالهم، وتخالف أحوالهم واضطراب رأيهم وأفعالهم وقد قيل :

وتَشَتّت الأعْدَاءِ فِى آرَائِهِـمُ سَبَبٌ لِجَمْعِ خَوَاطرِ الأَحْبَـابِ

وأما قصده وضع الكتاب؛ فإنه خطأ لا صواب، وتعبيره بأن فيه فوائد وحِكماً، وأقوال العلماء والحكماء، وأن يرفع به للعلم علماً، فإنه مكر وخديعة من سوء السريرة وخبث الطبيعة، يريد أن يستر جهله وأن يظهر على فضل الملك فضله، ويشتمل بذلك الوسواس على قلوب الناس؛ فتنصرف الوجوه إليه، وتقبل الرعايا عليه. ولكن يا مولانا الملك لا تمنع ذلك المنهمك، وأجبه

---

(١) يمشى ويجر ثوبه فى تبختر .

(٢) المكر والدهاء .

(٣) الغصة: الهم، والمعنى: أن يوقعه فى محنة تصيبه بالهم من جرائها .

(٤) الشديد السواد .

(٥) تضارب .

obeikandl.com

إلى ما سأل وطالبه بما بذل، وألزمه بالانفراد، ودعه وما أراد؛ فإن عدم اجتماعه بالناس لنا فيه أمن من الباس؛ فيشتغل حينئذ بنفسه، ويتقلب فى طرده وعكسه.

وأسأل مولانا السلطان، ذا الأيادى والإحسان، قبل الإذن له وشروعه فى المسألة، أن يجمع بينى وبينه لأبين شينه[1] وزينه، وأظهر لمولانا السلطان زوره ومينه[2]؛ فيتحقق دسائسه، وما بنى عليه وساوسه، وأدى إليه فكره، ووصل إليه خداعه ومكره؛ فعند ذلك يصدر أمره الشريف بما يقضيه رأيه المنيف[3].

فأجابه إلى سؤاله، وأمر طائفة من رجاله، فسيرهم إلى الآفاق بمراسيم جمعها الاتفاق إلى رؤساء مملكته وكبراء دولته، فاستدعى العلماء وذوى الفضل والحكماء، وأولى الآراء والصلحاء، ومن يشار إليه بالفضائل ويتسم بسمة من الفواضل، وكل أديب أريب من بعيد أو قريب، وقاطن وغريب، وبيَّن لهم مكاناً يجتمعون إليه وزماناً لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون عليه.

فاجتمع القوم فى ذلك اليوم حسب ما برز المرسوم فى المكان المعلوم، وجلس الملك فى مجلس عام وحضر الخاص والعام، واستدعى أخاه الحكيم وقابله بالاحترام والتكريم، وأنواع الإحسان والتعظيم.

ثم قال: أيها الأخ الكريم والفاضل الحكيم، كان تقدم منك الالتماس بالإذن فى تصنيف كتاب ينفع الناس، مشتمل على الفوائد وفنون الحكم الفرائد، يكسب الثواب الجزيل، ويخلد الذكر الجميل، فأحببت أن يكون ذلك بحضرة العلماء ومجمع الأكابر والفضلاء، واتفاق آراء الحكماء وأرباب

---

(١) العيب .

(٢) الكذب .

(٣) الحاسم الحازم .

الدولة والمناصب، وذوى الوظائف والمراتب، وأهل الحل والعقد المتصرفين فى الحكم والأمثال والنقد؛ ليأخذ كل منهم حظه ويشنف[1] سمعه، ويزين لفظه ولحظه؛ فتعم الفائدة وتشمل العائدة، ويتحقق كل سامع؛ وقائل ما لك من الفضائل والفواضل، وتتميز على أقرانك ورؤساء زمانك، ويبلغ الأطراف وسائر الأكناف[2] ما لديك للناس من إسعاف، وما قصدت لهم من إحسان وألطاف، فيتوفر لك الدعاء، ويكثر لك الشكر والثناء، لعظم فضلك وحسن آدابك فى نقلك. وقد أذنا لك فى الكلام، وسلمنا إلى يد تصريفك فيه الزمام؛ نعلمنا أنك فارس ميدانه، وفى بيان معانيك بديع بيانه، ولسان فصاحتك يدحرج كرة البلاغة كيف شاء بصولجانه، فقل ما بدا لك أحسن الله حالك .

فنهض الحكيم من مكانه وحسر طرف لثامه[3]، وبادر إلى الأرض بالتثامة[4] وقال: حيث أذن مولانا السلطان، وتصدق بالإذن فى حسن البيان، فلابد من إتمام الإحسان، وذلك بالإصغاء وحسن الرعاية والإرعاء، فإن حسن الاستماع هو طريق الانتفاع، وهو الدرجة الثانية، وهى مرتبة سامية، فإن حسن الأداء هى المرتبة الأولى، وتليها أيها الملك المطاع؛ مرتبة حسن الاستماع، ثم تليها فى الزيادة مرتبة الاستفادة، والمرتبة الرابعة وهى الجامعة النافعة؛ درجة العمل وبها الفضل اكتمل، وأما الغاية القصوى والدرجة العليا والمرتبة الفاخرة فهى الإخلاص فى العمل وطلب الآخرة، واتباع رضا المولى بترك السمعة والرياء، ثم لنحط العلوم الوضيحة أن النصيحة من حيث هى نصيحة، تتميز القلوب غيظا منها وتنفر النفس عنها؛ لأن النفس مائلة إلى الفساد، والنصيحة داعية إلى الرشاد، والنصيحة محض خير وبر،

---

(١) شَنَّف الكلام، أى زينه للسامع .

(٢) الأكناف مفردها، كنف: الناحية .

(٣) اللثام: ما كان على الأنف وما حوله من ثوب .

(٤) أى قبل الأرض بين يديه .

والنفس مطبوعة على الأذى والشر، فبينها تنافر من أصل الخلقة، وتباين من نفس الفطرة، والنفس تميل إلى ما جبلت عليه، والنصيحة تجذب إلى ما تدعو إليه، قال العزيز الجبار -حكاية عن الكفار- ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤١، ٤٢].

فالسعيد من تأمل فى معانى الحكم وسلك السبيل الأقوم، وتدبر فى عواقب الأمور بالافتكار، وتلقى الأشياء من طرف الاعتبار وقد قيل :

إذا لم يُغْنِ قَولُ النَصيحِ بمقَولِ   فإنَّ مَعَارِيضَ الكلامِ فُضُولُ[1]

ثم عش واسلم وتيقن واعلم يا ملك الزمان؛ أن أفضل شيء فى وجود الإنسان، وأحسن جوهرة تزين بها عقد تركيبه: العقل الداعى إلى كيفية تهذيبه فى أساليبه، وأفضل درة ترصع بها تاج العقل فى تزيينه وترتيبه الخُلق الحسن؛ الذى فضل الله به خير خلقه فى تعليمه وتأديبه وخاطب بذلك نبيه الكريم فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وبالخلق الحسن يُنال شرف الذكر فى الدارين، ولا يضع الله الخلق الحسن إلا فيمن اصطفاه من الثقلين .

وأفضل جنس الإنسان، بعد الرسول الرفيع الشان، الملك الذى يحيى أحكام شريعته، ويمشى على سنته وطريقته، وإذا كان الملك حسن الخلق والفعال؛ فهو فى الدرجة العليا من الكمال، قال الرسول النجيب صاحب التاج والقضيب، محمد المصطفى الحبيب ﷺ صلاة يتمسك بأذيالها الطبيب ويترنح لنسمات قبولها الغصن الرطيب: «ألا أخبركم على من تحرم النار؛ على كل هين لين سهل قريب[2]».

---

(١) معاريض مفردها، معراض: التورية، وهى خلاف المصرَّح به .

(٢) حديث أخرجه الترمذى: كتاب صفة القيامة (٢٤٨٨) وقال: حسن غريب .

obeikandi.com

- وروى أن ذلك السيد السديد الكامل المكمّل الرشيد، أتى برجل فكلمه فأرعد فقال: «هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار، وأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد[1]».

- ومن جملة حسن الخلق العدل والشفقة على الرعية والفضل. وإذا حسن خلق الملوك العلية؛ صلحت بالضرورة الرعية طائعة أوكارهة وسعت فى ميدان الطاعة فارهة. فإن الناس على دين ملوكهم وسالكون طرائق سلوكهم.

وأرذل عادة الملوك الطيش والخفة، وأن يكون ميزان عقله خالى الكفة، وإن عدم الثبات والوقار من عادة الأطفال والصغار. والرجل الخفيف القليل الحيلة، لا يقدر على تدبير الأمور الجليلة، ولا باب يوجد له ولا طاقة للدخول فى الأشغال الشاقة، ولا يستطيع أن يتحمل ثقل الرياسة ويتعاطى الإيالة[2] والسياسة، ولا قدرة له على فصل الحكومات المشكلة، والقضايا العريضة المعضلة، ولا الوصول إلى إثبات السيادة، ولا الدخول فى أبواب السعادة .

فإن تدبير الممالك وسلوك هذه المسالك يحتاج إلى رجل كالجبل فى السكون والوقار أوان الثبات، وكالبحر الهائج والسيل الهامر[3] أوان الحركات .

واعلم ياذا العلا والمالك المال والدما؛ أنه يجب على الملك الكبير اجتناب الإسراف والتبذير، فإنه حافظ دماء الناس وأموالهم مراقب مصالحهم فى حالتى حالهم ومآلهم، والمال الذى فى خزائنه قد اجتمع من وجوه مكامنه ومن خراج مملكته ومن أعدائه ومعادنه.

إنما هو للرعية ليذهب عنهم البلية ويصرفه فى مصالحهم وما يحدث من

---

(١) حديث أخرجه ابن ماجة: كتاب الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢) عن ابن مسعود .
(٢) الولاية .
(٣) شديد الاندفاع .

حوائجهم وجوائحهم[1]، فهو فى يده أمانة وصرفه فى غير وجهه خيانة، فكما لا ينبغى أن يتصرف فى مال نفسه بالتبذير، كذلك لا يتصرف فى أموالهم بالإسراف، والتقتير ومصداق هذا المقال قول ذى الجلال جل كلاماً وعز مقاماً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [الفرقان: ٦٧].

فينبغى للملك، بل يجب أن لا يستتر عن الرعية ولا يحتجب، وأن لا يبادر بمرسوم إلا بعد تحقيق المعلوم، ولا يبرز مرسومه ما لم يتحقق فيه معلومه، وذلك بعد التأمل والتدبر وستر عورة القضية والتفكر؛ وهذا لأن مرسوم السلطان على فم أبناء الزمان، وهو بمنزلة القضاء النازل من السماء، وإذا أنزل القضاء وفتحت له أبواب السماء فلا يُرد ولا يُصد، ولا يعوقه عن مضيه عدد ولا عد، ولا حيلة فى منعه لأحد وأمر أولى الأمر على زيد وعمرو، كالسهم الخارج من الوتر، بل شبه القضاء والقدر، تعجز عن إدراك سره قوى البشر، فكما أنه إذا أنفذ سهم القضاء والقدر لا يمنعه ترس حيلة[2] ولا يصده درع حذر، فكذلك أمر السلطان لا يثبت لرده حيوان، ولا يمكن تلقيه إلا بالإمضاء والإذعان، فإذا لم يتدبر قبل إبرازه فى عواقب مآله وإعجازه ربما أدى إلى الندم والتأسف حيث زلت القدم، ولا يفيد التلافى بعد التلاف، ولا يرد السهم إلى القوس. وقد خرق الشغاف، وكما أن الملك سلطان الأنام كذلك كلامه سلطان الكلام، وكل ما ينسب إليه فهو سلطان جنسه، فيجب عليه حفظ كلامه كحفظ نفسه.

وحسبك يا مالك الزمان لطيفة للملك أنوشروان[3]؛ فبرزت المراسيم الشريفة ببيان تلك اللطيفة .

[٢] **فقال الحكيم:** ذكر أهل السير ونقلة الأثر؛ أن الملك أنوشروان كان راكبا فى السيران فجمح به فرسه وقوى عليه نفسه، فاستخف شأنه،

---

(١) الجوائح مفردها، جائحة: المصيبة والكارثة .

(٢) أى شدة وعمق الحيلة .

(٣) كسرى أنوشروان، أحد ملوك الفرس، توفى سنة (٥٧٩) م .

وجبذ عنانه فهمزه ولكزه[1] وضربه ووخزه، فزاد جموحا وماد جموحا، فتجاذبا العنان فانقطع، وكاد أنوشروان أن يقع، فلاطف الفرس فاستكان ونجا بعد أن كاد يدخل فى خبر كان.

فلما وصل إلى محل ولايته واستقر راجف قلبه من مخافته دعا بسائس المركوب، فلبى دعوته وهو مرعوب فلعنه وشتمه وأراد أن يقطع يده وقدمه وقال: تُلَجَّم هذه الداهية بلجامٍ سيوره واهية فانقطعت فى يمينى وكاد الفحل يرمينى، ثم دعا بالمقارع وبالجلاد ليقطع منه الأكارع[2].

فقال السائس المسكين: أيها الملك المكين وصاحب العدل والتمكين أسالك باللّه الذى رفعك إلىهذا المقام أن تسمع لى هذا الكلام. فقال: قل ولا تُطِل.

قال: كأن هذا العنان يقول وكلامه فصل لا فضول، ومقوله قريب من العقول، الملك أنوشروان سلطان الإنس وفرسه سلطان هذا الجنس، وقد تجاذبنى قوة سلطانين، فأين لى طاقة هذا الثبات لهما ومن أين، لاجرم ذهب منى الحيل، فتمزقت بين سلطان الإنس وملك الخيل، فأعجب أنوشروان من السائس هذا البيان فأنعم عليه وأطلقه ومن رِقّ عقابه وعذابه أعتقه.

وإنما أوردت هذا البيان؛ ليتحقق مولانا السلطان أن حركاته ملكة الحركات، وصفاته سلطانة الصفات، وكلامه ملك الكلام فلا يصرفه فى كل مقام، وليصنه بالتأمل قبل القول، وليحتط لبروزه ويحفظه بالصدق والطَّول[3]، وإذا أمر بأمر فلا يرجع فيه بل يستمر على ما أمر به لئلا يقال سفيه.

---

(١) ضربه بجمع كفيه.

(٢) الأكارع مفردها، كراع: ما دون الركبة من مقدمة الساق.

(٣) الفضل.

ثم أعلم يا ملك الرقاب أن كلا من الثواب والعقاب له حد معلوم ومقدار مفهوم ينبغى للملك أن لا يتعدى لذلك حدا، وعلى الملك أن يصغى للنصيحة ممن مودته صحيحة، وقد جرب منه الصدق، وعلم منه الإخلاص فى النطق، لاسيما إذا كان ذا عقل صحيح وود صريح، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها، فبرودة الخاطر وسلامة القلب حرقة حرارتها. فإن الناصح المشفق كالطبيب الحاذق. فإن المريض الكئيب إذا شكا إلى الطبيب، شدة ألمه من مرارة فمه، يصف له دواء مرا فيزيد حرارته حرا، فلا يجد بدا من شربه، وإن كان فى المآل ينهض بكربه؛ لعلمه بصدق الطبيب وإنه فى الرأى مصيب، وما قصد بالدواء المر زيادة الضر، وإنما قصد بألمه عود الحلاوة إلى فمه. ولا يستحقر النصيحة إن كانت صادقة صحيحة، ولا الناصح خصوصاً الرجل الصالح .

[٣] فإن سليمان وهو من أجل الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وأحد من ملك الدنيا، وحكم على الجن والإنس والطير والوحش والهوام، استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره وخالف وزيره آصف بن برخيا؛ فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك، وصار كما قيل: أجير لصياد السمك[١] .

ثم قال الحكيم حسيب: أيها الملك الحسيب وأنا لما رأيت أمور المملكة قد اختلت، ومباشرى مصالح الرعية قلوبهم اعتلت، ولعبوا بالثقيل والخفيف، واستطال القوى منهم على الضعيف، ومدوا أيديهم إلى الأموال بالباطل وأظهروا الحالى[٢] فى حلية العاطل، وخرجوا عن دائرة العدل، وأطرحوا أهل العلم والدين والفضل، وتولى المناصب غير أهلها، ونزلت المراتب إلى

---

(١) قصة سليمان عليه السلام. وهى قصة أوردها الطبرى فى تاريخه، وهى من مقولات أهل الكتاب ولم يصح فيها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم خبر .

(٢) الحالى: هو التزين بالحلى، والعاطل من نزح عنه الحلى. والمراد إظهار الباطل فى صورة الحق .

غير محلها، وحُرم المستحقون، وأُبطل المحققون. إلى أن وقع الاختلال، وعم الفساد والضلال، وقويت أعضاد الظلمة على العباد وسائر القرى والبلاد، وهذا لا يليق بشرف مولانا الملك ولا بأصله، ولا يجوز فى شرع المروأة أن يكون الظلم طراز عدله، إذ قدره العلى وأصله الزكى أعظم مقاما من ذلك، ولا يحسن أن ينتشر إلا صيت رأفته فى الممالك، وعلى الخير مضى سلفه الكرام، وانطوى على مآثرهم صحائف الأيام، وقد قيل :

فـإنَّ الظلـمَ مِـنْ كُـلِّ قبيـحٍ وأَقْبَـحُ مـا يكـونُ مِـنَ النَّبيـهِ

وقيل:

ولَمْ أرَ فِى عُيـوبِ النَّاس شيئاً كَنَقْصِ القادريـنَ عَلَـى التَّمَـامِ(١)

ما وسعنى إلا الانحياز إلى العزلة، والتعلق بذيل الانفراد والوحدة، وما أمكننى أن أعمل شيئاً، ولا أقطع دون العرض على الآراء الشريفة وامتثال ما تبرزه مراسيمها المنيفة؛ فقد قال الناصح فى بعض النصائح: لا تخاطب الملوك فيما لم يسألوك، ولا تَقْدُمْ على مالم يأمروك.

فلما أذن فى الكلام، قمت هذا المقام فقلت: قطرة من بحور وذرة من طيور، ورأيت ذلك واجبا علىّ ونفعه عائدا إلىّ، وذكرت بعض ما وجب على سائر الناصحين، ولزم ذكره جميع المسلمين من طريق واحدة، ولزمنى أنا من طرق متعددة، أدناها طريق المروّة، وأعلاها بل أغلاها وثيق الأخوة التى هى أقوى الأسباب وأعظم الوصلات فى هذا الباب، فإن لُحمة القرابة(٢) هى السبب الذى لا يقطعه سيف الحدثان(٣)، والبنيان الذى لا يهدمه معول الزمان، وأساس الأخوة عنوان الفتوّة قال الله تعالى، وعز جمالاً وتقدس كمالاً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] .

---

(١) البيت من قصيدة للمتنبى .

(٢) صلة الرحم .

(٣) نوازل الدهر .

وقال القائل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخاً لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَاءِ بِغَيْرِ سِلاَحِ[1]

وناهيك يا زين الملاح بقصة الولهى مع الضحاك، قال: أخبرنا أيها الحكيم بذلك الحديث القديم.

[٤] **قال الحكيم:** بلغنا عن التاريخ، الباذخ الشماريخ[2] أن الضحاك كان من أحسن الناس سيرة، وأصفاهم سريرة، قد فاق الناس فضلاً، وبلغ ذكره الآفاق عدلاً، فتزيا له إبليس فى صورة الدهاء والتلبيس، فزعم ذلك الطباخ أنه طباخ، وصار كل يوم يهيئ له من أطيب الأطعمة ولذيذ الأغذية ما يعجز به غيره، ولا يقدر أحد أن يسير سيره، ولم يأخذ على ذلك جراية[3] فبلغت مرتبته عنده النهاية. واستمر على ذلك مدة مديدة وأياما عديدة والناس تكره أن تخدم بغير أجرة، خصوصاً فى هذا الزمان رؤساء الأعيان .

فقال له الإمام فى بعض الأيام: لقد أوجبت علينا يدا وشكرا، وما سألتنا على ذلك أجرا، فاقترح ما تختار أكافئك يا مهار .

فقال: تمنيت عليك أن أُقبِّل بين كتفيك، فأنى لى بذاك أن يقال قبّل بدن الضحاك. فأعجبه ذلك وأجابه، وحسر عن بدنه ثيابه وأدار ظهره إليه فقبل لوحى كتفيه، ثم غاب عن عينيه ولم يقف على أثره ولا عينه، فبمجرد ما لَثَمَه[4] ومس فمه جسمه؛ أخذته حكة وشكه موضع لثمه شكة، ثم خرج من موضع فيه سلعة[5] تلذعه شر لذعة، وتلسعه أحر لسعة، ثم صارا حيَّتين

---

(١) الهيجاء: الحرب .

(٢) أى من أمجاد التاريخ. والشماريخ، مفردها شمروخ: القمة العالية .

(٣) الجراية: الأجر اليومى .

(٤) قبله .

(٥) أى وكأنه خرج من فمه ناراً أصابته فتركت أثراً يؤلمه شديد الألم. والسلَع: آثار النار فى الجلد .

أشبهتا كيتين، فصار يستغيث ولا مغيث، فطلب الأطباء فأعياهم هذا الداء. ثم لم يقر له قرار ولم يأخذه سكون ولا اصطبار إلا بدماغ الإنسان دون سائر الحيوان، فمد يد الفتك، ولأَجَلِّ الأدمغة استعمل السفك، فضجر الناس لهذا البأس، وصاحوا وناحوا وغدوا مستغيثين وراحوا، فوقع الاتفاق بعد الشقاق على الاقتراع لدفع النزاع، فمن خرجت قُرعته كُسِرت قرعته[1]، وأخذ دماغه وحصل لغيره فراغه، فعالجوا به الكيتين، وغذوا به الحيتين، فيبرد الألم ويخف السقم. ففى بعض الأدوار خرجت القرعة على ثلاثة أنفار، فربطوا بالأغلال ودفعوا إلى النكال ليجرى عليهم ما جرى على الأمثال .

فبينما هم فى الحبس بين طالع نحس وطرد وعكس، وقف للضحاك امرأة وضية، واستغاثت به فى هذه القضية، فأدناها وسأل ما دهاها.

فقالت: ثلاثة أنفار من دارٍ، لا صبر لى عنهم ولا قرار، وحاشى عدلُ والسلطان أن يرضى بهذا العدوان؛ ولدى كبدى، وأخى عضدى، وزوجى معتمدى، وكلٌّ مسجون يسقى كاس المنون، فَرَقَّ لها الضحاكُ وقال: لا يعمهم الهلاك، فاذهبى يا مغاثة، واختارى واحدا من الثلاثة، وجهزها إلى الحبس ليقع اختيارها على من يدفع اللبس. فتصدى. لها الزوج وتمنى الخلاص من ذلك البوج[2]، فتذكرت ما مضى من عيشها معه وانقضى، واستحضرت طيب اللذات والأوقات المستلذات، فأتت إليه ومالت عليه، فتحركت الأنفس الإنسانية والشهوة الحيوانية، فهمت بطلبه وتعلقت بسببه. فوقع بصرها على ولدها فلذة كبدها، فرأت صباحة خده[3] ورشاقة قده، فتذكرت طفوليته وصباه، وتربيتها إياه وحمله وإرضاعه وتناغيه وأوضاعه، فعطفت عليه جوارحها، ومالت إليه جوانحها، فقصدت أن تختاره وتريح

---

(١) رأسه .

(٢) المحنة والمصيبة .

(٣) إشراقة خده .

أفكاره. فلمحت أخاها باكيا مطرقا عانيا قد أيس من نفسه وتيقن الإقامة بحبسه؛ لأنه يعلم أنها لا تترك زوجها وابنها، ولا تختاره عليهما، ولا تميل إلا إليهما، فأفكرت طويلا واستعملت الرأى الصائب دليلا، ثم أداها الفكر الدقيق وأرشدها التوفيق، وقالت: أختار أخى الشقيق.

فبلغ الضحاك ما كان من أمرها، واختيارها لأخيها بفكرها، فدعاها وسألها عن سبب اختيارها أخاها، وقال: إن أتت بجواب صواب وهبتها إياهم مع زيادة الثواب، وإن لم تأت بفائدة قاطعة وعائدة فى الجواب نافعة، كانت فى قتلهم الرابعة .

فقالت: اعلم واسلم أنى ذكرت زوجى وطيب عشرته، وأوقات معانقته ولذته، وما مضى معه من حسن العيش وانقضى من خفة الأحلام والطيش، فملت إليه وعولت فى الطلب عليه. ثم أبصرت ابنى فتذكرت مقامه فى بطنى وما مضى عليه من عاطفة، وشفقة عامة فى الأيام السالفة فهيمنى حبه القديم وشكله القويم، فَمِلتُ إلى اختياره وخلاصه من بواره. ثم لمحت أخى المتقدم عليهما فقست مقامه بالنظر إليهما، فقلت إنى امرأة مرغوبة، قينة[1]، عاقلة مطلوبة، إن راح زوجى فعنه بدل، وإن حصل الزوج وجد الولد وحصل فتهيأ الغرض، ووجد عنهما العوض. وأما الأخ الشقيق فما عنه عوض فى التحقيق؛ لأن أبوينا ماتا وفاتا، وصارا تحت الأرض رفاتا؛ فهذا الذى أدى إليه افتكارى ووقع عليه اختيارى، وأنشده لسان القال فيما قال، شعر :

وكَمْ أبْصَرْتُ مِنْ حُسْنٍ ولَكِنْ عَلَيْكَ مِنَ الوَرَى وَقَعُ اخْتِيَارِى

قال: فاستحسن الضحاك هذا الكلام، ووهبها جماعتها مع زيادة الإنعام.

قال الحكيم: وإنما أوردت هذا المثل لمولانا الملك الأجل، وعرضته على الحُضَّار ومسامع النظار؛ ليعلم أن لى عن كل شىء بدلا، وأما عن مولانا السلطان فلا، كما قال من أجاد فى المقال :

---

(١) إمرأة ذات صوت جميل وقَيْنَة، قلما تطلق على الحرائر .

وقَد تَعَوّضتُ عَنْ كُلٍّ بمشبهِهِ فَمَا وَجَدْتُ لأيّام الصِّبَا عِوَضاً

وليس لى عوض إلاّ فى بقاء ذاتك المحروسة، ودوام حياتك العزيزة المأنوسة. ثم إنى أخاف والعياذ بالله تعالى أن هذه الفتن التى قد أقبلت، والحركات انداهية التى وجود الخلاص منها قد أشكلت، تستأصل شأفة[1] أسلافنا الكرام، وتقرض شرف اجدادنا الملوك العظام، فاخترت العزلة لذلك فإنيا أسلم الطرق والمسالك .

قال الملك: لقد صدقت إذ نطقت، وتحريت الصواب فى الخطاب، وأنا أتحقق حسن نيتك وخلوص طويتك[2]، وحسن وفائك ويمن آرائك، فإنك أخ شقيق، وصدوق صديق، ولكن تعلم أن هذا الوزير رجل خطير، ورأيه مستنير وفضله غزير، وهو من أصل كبير، وله علينا حق كثير، وأريد أن يقع ما عزمت عليه ، وفوّضت فكرك المصيب إليه ، مع محاورته ومناظرته ومشاورته ، فإن كلا منكما ناصح ، مشفق وحكيم ، مدقق وعالم محقق. وفى مثل هذه الأشياء إذا اتفقت الآراء وطال النفس . تكاشف نور القبس، وسعد البخت وتمكن التخت[3] ، وصح الحق ووضح الصدق ، لا سيما إذا كان الكلام بين عالمين والسؤال والجواب من فاضلين كاملين .

قال الحكيم : أيها الملك العظيم ، إذا قام الإنسان فى صدد المعارضة ، وتصدى فى البحث إلى المعاكسة والمناقضة ، لا سيما إن كان من أهل الفصاحة واللسن ، وساعده فى ذلك الإدراك الحسن ، لا يعجز أن يقابل الإيجاب بالسلب . والاستقامة بالقنب ، والعكس بالطرد والقبول بالرد ، ويكفى فى جواب المتكلم إذا أورد مسألة لا نسلم ، وقد قيل فى الأقاويل : لا تنفع الشفاعة باللجاج[4] ، ولا النصيحة بالاحتجاج .

---

(١) الأصل والجذر .
(٢) ما يطويه الإنسان فى صدره .
(٣) تمكن من الحكم والملك .
(٤) الإلحاح .

أما أنا فقد بذلت جهدى، وأديت فى النصيحة ما عندى، وكشفت عن مخدرات[١] التحقيق أستار السبك[٢]، وكررت على محَك التصديق آثار الحِك[٣]، فإن وعيتم كلامى يسمع حى، فقد تبين الرشد من الغى، وإن أعرضتم عن عين اليقين فلا إكراه فى الدين.

فتصدى الوزير للكلام، وحسر عن ثغر بيانه اللثام[٤]، وبرز فى ملابس الملاينة والخداع، وسلك بخبث الطباع طرق الملاطفة والاصطناع، ودس السم فى الشهد ونزل من اليفاع[٥] إلى الوهد وقال: الحمد لله الكريم الذى مَنَّ على مولانا الملك بهذا الأخ الحكيم، الفاضل الحليم، الكامل العليم، الناظر فى العواقب، ذى الرأى المصيب والفكر الثاقب، فلقد بالغ فى النصيحة بعباراته الصحيحة، وإشاراته المليحة وكل شىء أبداه إلى المسامع وأنهاه، هو الذى يرتضيه العقل، ويرضيه العدل ويقبله الطبع القويم؛ إذ هو المنهج المستقيم، يترتب عليه الذكر الجميل، ويحصل به الثواب الجزيل، لكن الذى نعرفه فى حفظ الرياسة وإقامة ناموس السياسة، هو الذى عليه القوم فى هذا اليوم، وجرت عليه عادات الأكابر، وانخرط فى سلكه الأصاغر[٦]، فإن الزمان فسد، والفضل فيه كسد، وزاد فيه الحق والحسد، وتشرب المكر والأذى الروح والجسد، وكل فى الروغان ثعلب، وفى العدوان أسد، وصار هذا مقتضى الحال والمحمود من الخصال، والمطلوب من الرجال. والناس يدورون

---

(١) مخدرات، مفردها مخدرة: مستورة. أى ما خفى وستر من الحقائق .

(٢) سبك الفضة، صهرها ووضعها فى قالب وأراد: كشف ما خفى من أسرار الصنعة .

(٣) الشك .

(٤) أى شرع فى الكلام .

(٥) اليافع: التل المرتفع، والوهد: المكان المنخفض. والمعنى: نزل من السمو والعلو فى مرام الكلام إلى الدنو به .

(٦) الأصاغر، مفردها صغير: الحقير الوضيع .

بزمانهم بقدر مكانهم وإمكانهم، وقد قيل: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وبعض السياسات عند أهل الرياسات؛ يقتضى العقوبة بالتغريم[1] وأخذ المال بالترسيم[2]. ولولا عفو الملك عن المجرم ما طمع كل مؤذ ومجرم، ومن الحماقة والبله معاقبة من لا ذنب له، فإن وَضْعَ الأشياء فى محلها، وزمام الأمور والمناصب فى يد أهلها؛ هو أحد قوانين الشرع والسياسة، ومقتضى العقل والكياسة، والعدل والرياسة، والعقل والفراسة، والفضل والنفاسة[3]، وناهيك أيها الحكيم الفاضل قول القائل :

وَمَنْ لاَ يَــذُد عَــنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِــهِ ... يُهْدَمُ وَمَنْ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَــمُ

وما قيل :

لا يَسْلَمُ الشَّرفُ الرَفِيعُ مِنَ الأذَىَ ... حَتَّى يراقُ عَلَى جَوَانِبِه الــدمُ

ومن مقالات الملك أتابك أردشير بن بابك[4]: رب إراقة دم تمنع من إراقة دم .

وفى أمثال العرب: القَتْلُ أنْفَىَ لِلقَتْلِ .

وقيل :

لَعَلَ عَتَبُكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبهِ ... وَربّما صَحَتُ الأَجْسَادِ بِالعِلَلِ

---

(١) الغُرْم: ما يلزم أداؤه من المال .

(٢) الرَسْم: الأمر، وهو عند أهل الجباية: ما يؤخذ على البضائع ونحو ذلك ويعرف بالمكس .

(٣) الشرف والمجد .

(٤) أردشير بن بابك؛ مؤسس دولة الساسنيين سنة (٢٢٤م) فى بلاد الفرس، وهو من فرض الديانة الزرادشتية فى البلاد، هلك (٢٤١م) .

obeikandi.com

وهذا كله مصداق قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].
وناهيك يا ذا القدر الخطير قصة قابوس بن بشكمير[١]. قال الحكيم للوزير: أخبرنى أيها الدستور الكبير بكيفية ما أنت إليه مشير.

[٥] **قال الوزير:** ذُكر أن قابوس بن بشكمير ذاك الأسد المنير، قبض على جماعة كانوا جبذوا أيديهم من الطاعة، من أركان دولته وبنيان صولته، ثم قيدوه وحبسوه، وأقاموا ولده مقامه وأجلسوه، ثم إنهم لم يأمنوا غوائله[٢] وأفكاره الصائلة[٣]، فتآمروا أن يسبكوه ويعمدوا إلى دمه فيسفكوه[٤]، فأرسلوا إليه قاتلاً؛ فوثب إليه سائلاً، وقال له: ما سبب قتلى ومانابهم من أجلى مع كثرة إحسانى إليهم، وانسبال ذيل إكرامى[٥] وإنعامى عليهم، وتربيتى إياهم كالأولاد وفلذ الأكباد، وصونى إياهم عَمَّن آذاهم .

فقال: كثرة إراقة الدماء أهاجت عليك الغرماء، وأكثرت لك الخصماء. لما تغيرت خواطرهم عليك خافوا وقبل أن تحيف[٦] عليهم حافوا.

فقال قابوس: والله ما سبب هذا النكد والبؤس وإثارة هؤلاء الخصماء إلا قلة إراقتى للدماء. يعنى لو أراق دماء القائمين عليه لما وصل هذا المكروه إليه. فلما أبقى عليهم أفنوه، وحين ترك آذاهم آذوه.

وإنما أوردت هذا التنظير؛ ليقف خاطرك الخطير، أن أمور الرياسة،

---

(١) قابوس بن بشكمير؛ أمير من أسرة بنى زيار حكم جرجان وطبرستان، وكان أديبا، شاعراً. توفى (١٠١٢) م .
(٢) غوائل، مفردها غائلة: المكر .
(٣) أفكاره النافذة .
(٤) يهدروه ويقتلوه .
(٥) انسال إكرامه وجوده لهم
(٦) الجور .

وقواعد السياسة كانت تقتضى السبك، وأحرى بالعفو والترك؛ وأما الآن فذلك الحكم قد انتسخ[1]، والفساد فى قلوب العباد رسخ.

وقد قيل:

تُلْجَى الضَرورَاتُ فِى الأُمُورِ إِلَى سُلُوكِ مَالاَ يَلِيْقُ بِالأدبِ

ومزاج الزمان قد تغير، والمعروف قد تنكر، وقد أعرضوا عن طاعة السلطان، واتبعوا مخادعة الشيطان، وكلٌ منهم قد شرخ وباض الشيطان فى أذنه وفرخ[2]، وتصور لخيالاته الفاسدة ومحالاته الكاسدة أنه بما يكيد يبلغ ما يريد وهيهات وشتان :

لقد هَزُلَت حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كَلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلّ مُفْلِسِ[3]

وهذا كما قال الله تعالى ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً**﴾ [النساء: ١٢٠].

وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى، وألبسه من خُلع جبروته كمالاً وجلالاً، وجعلهم بأموره قائمين وبِعَيْن عنايته ملحوظين، وكما أن الرسل والأنبياء والسادة الأعلام الأصفياء هم صفوة الله من خليقته، ومختاروه من خير بريته، من غير كد ولا جهد، ولا سعى منهم ولا جد، ما برطلوا[4] على النبوّة والرسالة، ولا رشوا على نيل هذه الكرامة والنبالة؛ إنما هو محض فضل من الله تعالى وعناياته ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

---

(١) بطل وألغى .

(٢) أى تملكه الشيطان .

(٣) كلاها: قرب هلاكها. وسامها المساومة على الشراء .

(٤) البرطلة: الرشوة. أى ما قاموا بها حتى يحصلوا على النبوة والرسالة .

كذلك الملوك والسلاطين والقائمون بإقامة شعائر الدين، هم ممن اختاره اللّه على خلقه، وأجرى على يديه لهم بحار كرمه ورزقه، والسلطان ظِلُّ اللّـه فى أرضه يُجرى بين عباده شريعة نفله وفرضه، قال من له الخلق والأمر ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد غفل أهل هذه الممالك عن السلوك فى هذه المسالك، وعن درك هذه الحقائق، وأعرضوا عن الدخول فى أحسن الطرائق، وهى طريق المحاشمة[١] والصفح والمكارمة، وعَدُّوا المكر من أحسن الرياسة، والعقل والكياسة، والتحيّل لأكل أموال الناس من الذكاء، ومظالم العباد من خلال الصدق والصفاء، وتملقهم للملوك والسلاطين من أسباب الوصول إلى الأغراض، مع تحسين الظواهر وفى البواطن أمراض، فظواهرهم ظواهر الإنس تشتمل على المودة والأُنس، وما فيهم تحت الثياب إلا كلاب وذئاب، ولأجل هذا سلطنا الله عليهم ومَدَّ يَدَ بطشنا إليهم، نعاملهم بالفراسة، ونعمل بما تقتضيه الكياسة، وتصوبه الآراء السلطانية من قواعد السياسة .

قال الحكيم حسيب، بعدما أدرك مافى هذا الكلام من نُكْر غير مصيب: اعلم أيها الوزير، النافع الناصح، والدستور الشفيق المصالح؛ أن الرعية بمنزلة السرج[٢]، والملك بمنزلة الشمس فى البرج، وإذا تلألأ على صفحات الأكوان، وأنار فى وجه الزمان والمكان أشعة نور الشمس الوهاج، فأى شعاع ووجود يبقى للسراج. وإن أنوار قلوب الرعايا، وما يحصل لها من إشراق ومزايا؛ إنما هى من فيض أشعة ملوكهم، وإن الرعية تتبع الملوك فى سلوكهم، فإذا صفت مرآة قلب السلطان، أشرقت بالطاعة قلوب الرعايا والأعوان، بل الزمان والمكان تابعان لما يضمره وينويه السلطان.

---

(١) الأدب والحياء .

(٢) السُرُج، مفردها السرّاج ما يوضع فيه زيت المصباح .

وقد قيل: إذا تغير السلطان تغير الزمان. وهل أتاك أيها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور. قال الوزير: أخبرنا يا باقعة[1] كيف كانت تلك الواقعة.

[٦] **قال الحكيم:** أخبرنى شيخ عليم بالفضل مشهور، أن بهرام جور، وكان ذا أيد عزم على الصيد، فخرج فى عسكر جرار، واستوى فى الصحارى والقفار[2]، وبينما هم قد تفرقوا فما شعر إلا وقد حركت يد الشمال غربال المطر، ثم تراكم من السحاب على وجه عروس السماء النقاب، وانهلَّ الغمام المدرار، وصارت الدنيا جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأقبلت سوابق السيول تجرى فى مضمارها الخيول، فتشتت العساكر وتشوشت الخواطر، فقصد بهرام جور كفراً من الكفور، وطلب القِرَى[3] من تلك القُرى، منفرداً عن عسكره مخفياً من خبره، فنزل بيت الرئيس؛ وهو رجل خسيس، فلم يقم من حقه بالواجب لأنه لم يعلم ذلك الراكب، فتشوش خاطره، وتكدرت ضمائره، وتغيرت عليهم نيته وإن لم تتغير بشريته.

فلما أقبل الليل جاء الراعى، وهو يدعو بالويل، ويشكو كثرة المِحَن من قلة اللبن، وذكر أن المواشى لم تدُّر ضرعاً مع أن رعيتها كانت أحسن مرعى، ولا وُقف لذلك على سبب، ولا دُرى كيف حال حالها وانقلب.

وكان للرئيس بنت تُخجل الأقمار بخدها، وتقصف الأغصان على قدها. فلما سمعت كلام الراعى قالت: والله أنا أعرف السبب والداعى، وهو أن السلطان الذى نيته حفظ أوطاننا تغيرت نيته علينا، وتقدم ضميره بالسوء إلينا، فظهر النقص فى ماشيتنا وسيتعدى ذلك إلى أنفسنا وحاشيتنا وقد قيل: إذا هَمَّ

---

(١) الداهية، شديد الذكاء .

(٢) القفار، مفردها قفر: الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ .

(٣) الضيافة .

الحاكم بالجور على الرعايا، أدخل الله النقص فى أموالهم، حتى الزروع والضروع.

قال أبوها: فإذا كان الأمر كذلك فلا مقام لنا فى هذه الممالك، فالأولى أن نتحول عن هذا المكان إلى مقام لا يضمر فيه سوء لرعيته السلطان، ونستريح فى ظل حاكمه ونرعى فى مسارح مكارمه. كل هذا وبهرام يصغى إلى هذا الكلام .

فقالت البنت: إن كان ولابد من الانتقال واقتعاد مطية الارتحال فما نصنع بهذه الأثقال والأزواد الثقال، نقدم لهذا الضيف منها يحصل التخفيف عنها، ويقع بذلك فائدتان، إحداهما: حسن المضيف. وثانيتهما: التخفيف. فامتثل أبوها أمر بنته، ونقل إلى الضيف ما حواه بيته من طعام وشراب ونَقْل[1] وكباب، وبسط بساط النشاط، وأخذ فى دواعى الانبساط، وانتقل من المحاشمة إلى المكالمة والمنادمة، وعمل بموجب ما قيل:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللذَاتِ إلاّ أَحَاديث الكِرَام عَلَى المُدَامِ[2]

فلما هجم جيش السُكْر، وهزم جند العقل والفكر، تذكر بهرام مجالسته ومؤانسته فيها ومحادثته وما فيها، من مغازلة الغزلان، وأصوات الأغانى والقيان[3]، فأبانت حشمة السلطنة عن مضمرها، وتفوه بشىء يلوح بمخبرها وشاقت نفسه إلى معتادها فأعرب شطحها عن مرادها، وقال للرئيس: أيها النديم الكيس، لو كان لنا من يطربنا بصوته، ويبهجنا بصورته، ولو أنها وصيفة أو ذو صورة لطيفة، ولا نطلب زيادة عن النظر، وحسن المفاكهة

---

(١) ما يؤكل على الشراب كالفستق والتفاح .

(٢) جلسة الشراب .

(٣) القيان، مفردها قينة: الأمة ذات الصوت الجميل .

والسمر والمنادمة إلى السحر؛ لتزالت وحشة الاغتراب، ودهشة حدة الشراب فإنه قيل: الشراب بغير نغم غمّ، وبغير دسم سُمّ، وإن مذهبنا ما قيل :

أتـأذنون لصـب فـى زيـارتكم فـإنكم فـى محـل السـمع والبصـر[(١)]
لا يضمر السوء إن طـال الجلوس به عفٌّ الضمير ولكـن فاسق النظـر

فنهض الرئيس، وترك مذهبه الخسيس، واستعمل المروءة، وسلك سبيل الفتوة، وأنشد يقول :

وكُلّ قِيَـادَةٍ لأخ وخِـلّ بلاَ جَعَـل فَتِلْكَ مِنَ المُـرُوءةِ

وأخطر البال ما نظمه الشاعر وقال :

يـا نَـاظِمَ الشّـعْر فِـى مَقَـامٍ فَتَـى يَقُـودُ فَاسـمَع مَقَالَـةَ الظُرفَـا
ألـفٌ هـذا حُـروفـهِ سَمحـتْ هَمَـة هَـذَا فَألـفَ الحُرفَـا

ومن مذهب المجوس إباحة فِرْج العروس فدخل فى بيته وذكر ما جرى بينه وبين ضيفه لبنته، وقال: أى ربيبة الحسن والاحسان، أظن أن ضيفنا من أكابرة الأعيان، ومقره فى حضرة السلطان، وقد ألتمس منّى ما يزيد سروره ويفيد حضوره حبوره[(٢)]، ويلهيه بمفاكهته وحسن منادمته، وما عندنا من يصلح لذاك؛ أى مادة السرور سواكِ، وأنا أعرف بعفتك، ونزاهتك، وحسن محاضرتك، ومفاكهتك، وصيانة رأيك، ورزانة عقلك، وذكائك، فإن رأيت أن تمتعيه بالنظر إلى جمالك، وتعتنيه بغنجك[(٣)] ودلالك، ولو بلحظة أو بلفظة، ثم تعودى إلى كُناسك[(٤)] بين أهلك وناسك.

---

(١) الصب: العاشق الولهان .
(٢) السرور .
(٣) الغنج: الدلال .
(٤) المنزل .

obeikandi.com

فقالت: الأمر منك وإليك، وما أريد أن أشق عليك، وليس فى ذلك عار، ولا فى خدمة الضيف وإكرامه شنار[1]. فأجابت أباها، وكان ذلك عن رضاها؛ بل جل قصدها ومناها. فأقبلت إلى خدمة الضيف، ولعبت معه من لحاظها وقدها بالرمح والسيف، إلى أن صادته بلحظها المكسور[2]، فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور، وكان قد خرج للصيد فَصيد، وصار مع سلطانه لها من جملة العبيد، ثم إنه أنشد يقول :

أَرَى مَاءً وَبِى عَطَشٌ شَدِيدٌ وَلَكن لاَ سَبِيلَ إِلى الوُرودِ

ثم قرر فى ضميره أنه إذا وصل إلى سريره، يطلب هذا الرئيس ويصاهره، ويقطعه هذه القرية ويعاشره، ويجعل بنته خوندة[3]، ويسلم إلى أبيها جنده، فما استتم هذا الخاطر الخطير حتى جاءهم الراعى المستجير، وقال: إن الغنم التى ما بضَّت بقطرة[4] ولا درت درة، قد امتلأت ضروعها القاحلة، فها هى دارة حافلة، قد صارت كالسيول على السابلة[5]، فلم يبق وعاء إلا امتلأ، وقد روى من الجيران الملأ، وهاهى تشخب[6] وتسيل، وفاضت فأروت الحقير والجليل، وأغنت الجيران وكأنها غدران.

فقالت بنت الرئيس: لله الحمد والتقديس الذى أصلح نية سلطاننا؛ حتى استقررنا فى أوطاننا، وعاد علينا ما سُلِيناه، ورجع إلينا ما طلبناه، فعجب بهرام جور من هذه الأمور. ولما أصبح الصباح وركب وراح؛ استقر فى

---

(١) عار .
(٢) اللحظ: النظر بمؤخرة العين .
(٣) أى ملكة (فارسية) .
(٤) أى لم يخرج منها اللبن .
(٥) الطريق الذى يسلكه الناس .
(٦) تسيل وتفيض .

ولايته الزاهرة، ومضى ما كان أنواه من المصاهرة، وأسبل عليه ذيل الإنعام وزاد له من الإكرام ما انتظم به أمره واستقام .

وإنما أوردت هذا الخبر؛ لتعلموا أن الزمان فى المجيء والممر، مطيع لما أضمر السلطان وما أظهر، وما أحلاه فى أمر رعيته وما أَمَرَّ؛ .

وقد قيل: عدل السلطان . ير من خصب الزمان. وإذا لم يكن الملك برعيته شفيقا، ولا بارا ولا رفيقا، ولم يتجاوز عن مسيئهم، متلهفا لدعائهم، مشغوفا بمحبتهم، محسنا لمحسنهم، قائما يحفظ مأمنهم؛ فالأولى بهم أن يهاجروا عن مملكته ويخرجوا عن إقليم ولايته.

قال رب العالمين لنبيه وحبيبه سيد المرسلين ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فينبغى للحاكم أن لا يؤاخذ أحد بجريرة أحد ابدا، قال الله جل ذكراً ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولو طُلب أحد بجريرة أحد، ولَحَق البرىء بسبب المذنب عقوبة ونكد؛ لفسدت المملكة وانتشرت المهلكة، واضطربت الرعية، وانخرمت القواعد العلية؛ ولو فُعِل ذلك المتقدم من الملوك؛ لهلك الصعلوك، وانسد الطريق المسلوك، وانخرمت القاعدة على المالك والمملوك، ولم يبق للتاجر شيء، ولا على وجه الأرض حى.

ويجب على من باشر عند الملوك أمرا من الأمور، أو حكما على الجمهور، وأن يكون فى دينه متينا، وعلى الناس أمينا، سديد الفكر، قويم النظر، صدوق النطق، ظاهر الصدق، دائرا مع الحق يقظان، مراقب فى خواتيم أمره والعواقب، عادلا بين الأخصام، شفيقا على الخاص والعام، ثابتا فى النوازل، معدود فى البوازل، مشغولا بتهذيب نفسه، متذكرا يومه

فى غده وأمسه ، متميزا بالشمائل المرضية على أبناء جنسه ، واضعا الأشياء فى محلها ، متفصِّحاً بنفسه عن جلِّها وقلها ، مقيماً كل أحد فى مقام لا يتعداه ومنصب معلوم لا يتخطاه ، حتى تستقيم بذلك أمور المملكة ، وتصان من الوقوع فى مهاوى التهلكة ، ويطمئن خاطر مخدومه ، ويركن إليه فى منطوق قوله ومفهومه فيقبل قوله وفعله ويعرف فصله وفضله .

وكذلك يجب أن يكون الملك كريم الأعراق ، لطيف الأخلاق ، شريف الأعلاق[١] ، وأن يكون فى جميع أحواله متمسكا بذيل أفضاله ، مراعيا سيرة أجداده من الملوك ، سالكا طريقة الملوك من حسن السلوك ؛ لأن من لا يشيد أركان أسلافه ، ولا يقوى بنيان أشرافه ، يصيبه مثل ما أصاب الذئب مع الجدى المغنى المصيب . فسأل الملك من أخيه أن يذكر ذلك المثل وينهيه.

[٧] **فقال** : بلغنى يا مليك الأراض أنه كان فى بعض الغياض[٢] لذئب وجار أهل وجار ، فخرج يوما لطلب الصيد ونصب لذلك شباك الكيد ، وصار يجول ويصول ولا يقع على محصول ، فأثر فيه الجوع واللغوب[٣] ، وآذنت الشمس بالغروب ، فصادف بعض الرعيان يسوق قطيعين من الضان ، وفيهما بعض جديان ؛ فهم عليها لشدة الجوع بالهجوم ، ثم أدركه من خوف الراعى الوجوم[٤] ؛ لأنه كان متيقظا وعلى ماشيته متحفظا ، فجعل يراقبه من بعيد والحرص والشره[٥] يزيد ، والراعى سائق والذئب عائق ، فتخلف جدى غبى غفل عنه الراعى الذكى ، فأدركه الذئب النشيط واقتطعه بأمل بسيط ، وبشر نفسه بالظفر وطار واستبشر .

---

(١) الأنساب .

(٢) الغياض ، مفردها غيضة : البستان .

(٣) الإعياء والتعب .

(٤) عبس وجهه وأطرق لشدة الخوف .

(٥) الطمع .

فلما رأى الجدى الذيب علم أنه أصيب بيوم عصيب ، وظفر منه بأوفر نصيب ، فتدارك نفسه بنفسه واستحضر حيلة جاشه وحدسه[1] ، ومكره بما أضمره فى نفسه ، وعلم أنه لا ينجيه من هذه الورطة الوبيلة ؛ إلا مغيث الخداع والحيلة ، وأذَّكَّر الخاطر ما قال الشاعر :

وَلَكن أَخُو الحَزْمِ الَّذِى لَيْسَ نَازِلاً بِهِ الحَطْب إِلاَّ وَهُو بِالقَصْدِ يُبْصِرُ

فتقدم بجاش صليب[2] ، وقبل الأرض بين يدى الذيب ، وقال : محبك الراعى لجنابك داعى ، يسلم عليك وقد أرسلنى إليك ، يشكر صداقتك وشفقتك وحشمتك ومرافقتك ، ويقول : قد تركت بحسن آدابك عادة أجدادك وآبائك ، فلم تتعرض لمواشيه وحفظت بنظرك حواشيه[3] ، وقد حصل لضعافها الشبع وأمست بجوارك آمنة من الجوع والفزع ، وحصل لها الأمن من الجزع فالله يجعل جوارك وغياضك أحسن مجتمع ؛ لأن عِجَاف ماشيته[4] شبعت ورويت واستنعشت وقويت ، فأراد مكافأتك ، وتطلب مصافاتك ومصادقتك ، فأرسلنى إليك لتأكلنى وأوصانى أن أطربك بما أغنى ، فإنى حسن الصوت فى الغناء ، وصوتى يزيد فى شهوة الغذاء ، فإن اقتضى رأيك الأسعد غنيتك غناء يُنسِى أبا إسحاق[5] ومعبد[6] ، وهو شىء لم يظفر به أباؤك ولا أجدادك ، ولا يناله أعقابك وأولادك ، يقوى كرمك وشهوتك وقرمك[7] ويطيب مأكلك ويسنى

---

(١) التخمين والظن .

(٢) الثبات .

(٣) خواصه .

(٤) الضعيف منها .

(٥) أبو إسحاق ، إبراهيم بن ميمون الموصلى : من أشهر موسيقى العرب ، برع فى الغناء والعزف على العود ، نادم المهدى والهادى الرشيد وعرف بالنديم ت [٧٤٢ : ٨٠٤م] .

(٦) معبد ، أشهر مغنى فى العصر الأموى ، نشأ بالمدينة وارتحل إلى الشام ، واتصل بكثير من أمراء بنى أمية توفى سنة (٧٤٣م) .

(٧) العض .

مـأملك ، وإن صوتـي للذيـذ ألذ للجائع من جدى حنيـذ[١] بخـبز سـميذ[٢] ، وللعطشان من قدح نبيذ ورأيك أعلى وامتثالك أولى .

فقال الذئب : لا بأس قد أجبت سؤالك فغن ما بـدا لـك ، فرفـع الجـدى عقيرتـه[٣] ، ورأى فـى الصيـاح خيرتـه ومـلأ الدنيـا عياطـاً وأعقبـه ضراطـا وأنشد:

وَعَصفُورُ الهَوىَ يَهْوَىَ جرَادة كَمَا عَشَقَ الخَروفُ أبا جُعَادة[٤]

فاهتز الذئب طربا وتمايل عُجْبا وعَجَبا ، وقال : أحسنت يـا زيـن الغنـم ولكن هـذا الصـوت مـن ألـم ، فـارفع صوتـك فـى الزيـر فقد أخجلت البلابـل والزرازير[٥] ، وزدنـى يا مغنى قولى :

أَقَـــرَّ هَـــذَا الزَمَـــانَ عَيْنِـــى بالجَمْــــع بَيْن المُنَـــــى وَبَيْنِـــى

وليكـن يـا سيدى المغنـى هـذا مـن أوج الحسـينى[٦] ، فـاغتنم الجـدى الفرصـة ، وأزاح بعياطـه الغصـة ، وصـرخ صرخـة أخـرى إذ كـره الطامـة الكبرى ، ورفع الصوت كمن عاين المـوت ، وخـرج مـن دائـرة الحجـاز إلـى العراق وكاد يحصل له من ذلك الانفتاق وقال :

قِفُـوا ثُم انْظُـروا حَالِى أَبُـو مذَقَـةَ أَكَـــالِى[٧]

فسمعه الراعى يشدو فأقبل بالمطراق يعدو ، فلم يشـعر الذئـب الذاهـل

---

(١) مشوى .

(٢) سميذ : من أجود أنواع الدقيق الأبيض .

(٣) صوته .

(٤) أبو جعادة : كنية الذئب .

(٥) الزرازير ، مفردها زرزور : العصفور الصغير .

(٦) الأوج : العلو ، والمعنى تعلية الصوت مع تحسينه .

(٧) أبو مذقة : كنية الذئب .

obeikandi.com

وهو لحسن السماع غافل ؛ إلا والراعى بالعصا على قفاه نازل ، فرأى الغنيمة فى النجاة وأخذ فى طريق النجاة ، وترك الجدى وأفلت ونجا من سيف الموت المصلت ، وصعد إلى تل يتلفت بعد إذ تفلت فأقعى[1] يأكل يديه ندامة، ويخاطب نفسه بالملامة ، وقال : أيها الغافل الذاهل والأحمق الجاهل متى كان على سماط[2] السرحان الغناء والأوزان ، وأى جَدٍّ لك فانى ، وأب مفسد جانى ، كان لا يأكل إلا بالأغانى وعلى صوت المثالث والمثانى[3] ، فلولا أنك ما عدلت عن طريقة آبائك ما فاتك لذيذ غذائك ، ولا أمسيت جائعا تتلوى، وبجمر فوات الفرصة تتكوى ، وبات يحرك ضرسه ونابه ، ويخاطب نفسه لما نابه ويقول :

وعَاجزُ الرأى مُضياعٌ لِفُرْصَتِهِ حتَّى إذَا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرَا

وإنما أوردت هذا النظير ؛ لمولانا الملك والوزير ؛ ليعلم أن العدول عن طرائق الأصول ليس إلا داعية الفضول ، ولا يساعده معقول ولا منقول، وأموره ذميمة وعاقبته وخيمة ، وناهيك ماهو كالعلم ، ومن يشابه أبه فما ظلم.

ويؤخذ من مفهوم هذه الحكم : أن من لم يشابه أبه فقد ظلم ، خصوصا الملوك والسلاطين ، الذين اختار رفعتهم رَبُّ العالمين ؛ وذلك لئلا يدخل على قواعد المملكة من حركات الاختلال والاختلاف حركة ولله ياذا الإحسان ما قيل فى شأن الملك أنوشران :

لِلهِ دُر أنوشروان مِنْ رَجُل مَا كانَ أَعْرفهُ بالوغدِ والسفل
نَهَاهـمْ أنْ يَمَسُّوا عِنْدهُ قَلمَا وَأنْ يَذل بَنُو الأحرار بالعَمَل

وكل هذا من عدم التدبر والتأمل فى العواقب والتذكر ، ومن ترك التأمل والافتكار أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار . فقال الملك : أفِدْنَا أيها المختار كيفية هذه الأخبار .

---

(١) جلس على مؤخرته .
(٢) بساط الطعام .
(٣) المثالث والمثانى : الألحان التى تعزف على العود ذى الوترين والثلاثة .

[٨] **قال الحكيم** : كان فى جوار بستان مأوى لابن آوى ، وكان ذلك البستان كأنه قطعة من الجنان غفل عنها رضوان ، كثير الفواكه والرطب ، خصوصا التين والعنب ، وكان ابن آوى يدخل البستان من مجرى الماء ، ويأكل الثمار كيفما أحب واختار ، وينصرف ذلك الخبيث ويأخذ فى الفساد ويعيث ، كأنه ذميم ترك الذمام ، أو لئيم من بنى اللئام .

فتضرر البستانى من إضرار ذلك الجانى ، وعجز عن صيده ودفع كيده ، فراقب دخوله ليختله[١] ويغوله[٢] ، إلى أن رآه يوما دخل ، وفى البستان حصل ، وبأكل العنب اشتغل ، فبادر إلى نقرة الماء فسدها وسد الطرق التى أعدها ، ودخل إلى الباغى وحصل ذلك الطاغى وحصره وأوهنه وضربه إلى أن أثخنه[٣] ، فذهبت قواه وشلت يداه ورجلاه فتصور أنه مات لما سكنت عنه الحركات ، فأشحطه بذنبه[٤] ، ورماه وعلى العظام الرفات ألقاه . فاستمر لا يفيق ملقى على الطريق ، إلى أن تراجعت إليه نفسه وقوى جأشه ، وحسه فتحرك وهو هشيم وتنفس وهو سقيم ، ثم تدحرج إلى منزله وقد أحاط به سوء عمله ، إلى أن صح فهمه وقوى جسمه ، فافتكر فيما جرى من الجار القديم عليه من العذاب الأليم .

فقال : إذا كان جار العمر وقرين الدهر قصد دمارى ، ولم يرع لى حق جوارى ؛ لأجل قوت فَضُل عن أقواته ، وأثبت أجره فى ديوان حسناته ، وشد لحتفى على حلقى مسدَّ الطِّنَبِ[٥] ولم يعمل بقوله تعالى ﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ [النساء : ٣٦] . بل لو رمق فى بدنى أدنى رمق[٦] ، أو أقل حركة لما تركه ، فلا خير لى فى جواره ولا قرب داره ، فإن سلمت هذه المرة فما

---

(١) ليخدعه .
(٢) يمكر به ليقتله .
(٣) آلمه .
(٤) سحبه .
(٥) الحبل الشديد .
(٦) ما بقى له من حياة .

كل مرة تسلم الجرة ، والأليق بالحال الترحال ، وطلب الرزق بالتوكل والرفق، والذى شق الأشداق تكفل لها بالأرزاق ، وإن إله الخلق لم يعذب بقطع الرزق.

ثم إنه افتكر فى جهة السفر وأين تكون المستقر ، وكان لأبيه الذميم ذئب وهو صاحب قديم ، ساكن فى بعض الغياض المجاورة للدَّرَج[1] والرياض ، فتوجه إليه وترامى عليه ، وتوسل بصحابة أبيه لديه ، وقال : صداقة فى الآباء قرابة فى الأبناء وذكر له حاله وما جرى له ، وأن جاره خانه ولم يرع حقه ومكانه ، فقصد أن يكون تحت ظله نازلا فى محله ؛ ليفوز بمجالسته ويحظى بمؤانسته ، ويقضى باقى عمره فى خدمته ، ولا يفارق وفاءه حتى يحصل فى حفرته ، فتلقاه بالقبول والإقبال ، والفضل والإفضال ، والبشر والبشاشة ، واليسر والهشاشة[2] ، وبسط له فراشه ، وأزال قبضه وانكماشه ، ودهشته واستيحاشه ، وألبسه رياشه[3] ، وتذكر والده وجدد مَعَاهِده ، وأسدى إليه من إحسانه ما أنساه ذكر أوطانه ، خصوصا جوار جاره وبستانه وأنشده بديها :

فَأَهْلاً بِمَحْبُوبٍ قَدِيمٍ وَدَادِهِ ... وَسَهْلاً بِمَنْ قَدْ كَانَ وَالِدَهُ أَبِى
تَحَكَّمُ عَلَى مَالِى وَرَوْحِى وَمَسْكَنِى ... وَأَهْلِى وَأَوْلاَدِى وَجَاهِى وَمَنْصِبِى

ولم يكن عند الذئب ما يطعمه ضيفه ويشبع جوفه ، فاستعد للكياد[4] ، وعزم على الاصطياد .

فقال ابن آوى : أين تريد وتتركنى وأنا وحيد . فقال : أمنت خوفك فأريد أن أشبع جوفك ، ومن المعلوم أن عدم الضيافة لوم .

---

(١) الطريق .
(٢) الانبساط .
(٣) الثياب الفاخر .
(٤) المكر والخبث .

فقال : لا تتعب فأنا أذهب ، فلى صاحب حمار كأنه تيس مستعار ، يصغى إلى قولى ويعتمد على قوتى وحولى ، فإنى أخدعه وإلى دارك أشيعه، فأوثقه حبالك وافعل معه ما بدا لك ، فصيره لنا طعاما فإنه يكفينا أياما . فاستصوب الذيب رأى ذلك المريب ، وتوجه ذلك الغدار ليأتيه بالحمار ، وصعد تلا ينظره ويرتقب ما يكون خبره .

ولما توجه ابن آوى لطلب الزبون[1] انتهى فى سيره إلى طاحون ، وإذا بحمار قد أوثقوه حبلا وأوسعوه ذلا وعلى ظهره حِمْل قد قصم ظهره وأدمى دبره ، فطرحوا حمله واصلحوا جله وتركوه يسعى وفى المرج يرعى ، فتقدم ابن آوى إليه وسلم سلام معرفة عليه ، وأظهر له المحبة والوداد وسأله عن أهله والأولاد .

فقال له : أى أهل وولد وأنا فى هذا البؤس والنكد ؛ ما بين حمل ثقيل وجوع طويل ، وركوب وَسَخر ومصائب أُخَر ؛ هذا يركب وهذا يضرب ، وهذا يسحب ، وهذا يحمل حمله ، وهذا ينخش بالمسلة[2] ، وهذا يحبس على الجوع والذلة ، وهذا يقود بحبله وهذا يردد بثقله ، وهذا يجود ، ولكن بكلام ثقيل فكأنى فى مشاقى كما قيل :

ولاَ يَقيم عَلَى ضَيْم يُراد بِهِ ... إلاّ الإذلان عِيْرُ الحىَ والوتَدُ[3]
هذا عَلَى الخَسْفِ مَرْبُوط بِرمتِهِ ... وذَا يَشْج فَلاَ يَرْثَى لَهُ أحَدُ[4]

فتفجع ابن آوى وتوجع ، وحولق[5] واسترجع ، والتهب واضطرم ،

---

(١) الزبون : الغبى الأبله ، وقصد به الحمار .
(٢) الإبرة الكبيرة .
(٣) الضيم : الظلم .
(٤) الخسف : الإزلال . والرمة : الحبل . والشج : الشق إلى نصفين .
(٥) الحولقة ، أو الحوقلة : نحت خطى بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله .

obeikandi.com

وأظهر التحرق لما رآه من الألم ، وأخذ يلومه على صحابة بنى آدم والمصابرة على ما يلجئه إلى الندم من إيذائهم وجفائهم وتحمل بلائهم وعدم وفائهم ، وقال له : ختام هذا الذل ، والتطوق بهذا الغل[1] ، وتحمل أنواع الهوان من البعض والكل ، وإلام هذا العطش والجوع ، وعدم القرار والهجوع ، وأرض الله واسعة الفضاء شاسعة الأرجاء ، وحتام تذوب من اللغوب[2] تحت هذا الحمل الثقيل ، والجور العريض الطويل .

فقال : لو وجدت ملجأ ، أو مسرحا ، أو مدخلا ، أو مطرحا ، أو مغارات ، أو منجح ؛ لوليت إليه وأنا أجمح ، وتخلصت من هذا البلاء العظيم والشقاء الجسيم ، ولو رأيت أحدا شفيقا ، أو مصافيا صدبقا يهدى إلى الخلاص طريقا ، لاستغنيت بآرائه ولاستشفيت لدائى بدوائه . قال ابن آوى : يا أكمه[3] إنى أعرف بالقرب أجمة[4] ، أزهارها فائحة ، وأنوارها لائحة ، وأنهارها بالصفاء غادية ورائحة ، غياضها نضرة ، ورياضها خضرة، ورباها[5] حصينة ، وذراها أمينة ، وأنا ساكن فيها آمن فى ضواحيها ونواحيها ، فإن اقتضى رأيك ذهبت بك إليها لتقف عليها ، فإن أعجبتك سكنتها ووقيت النوائب وأمنتها ، فإنها بمعزل عن السباع الجواسر ، والضباع الكواسر[6] ، والجوارح النواسر ، لا يطرقها إنسان ولا يدخلها حيوان ، وسترى من خير جار وحسن الجوار ، وستحمد عاقبة مقالى وما تراه من أفعالى ، وتخلص من جفاء بنى آدم وتبقى فى نعيم منعم ، وتعيش معناً فى عيش رغيد وعمر هنىء سعيد ، وتحصل المؤانسة ويُمْنُ المعاشرة والمجالسة. وأما أنا فلا أجد رفيقاً مثلك ، وليس لى إلى صديق غيرك مسلك .

---

(١) القيد .
(٢) الإعياء .
(٣) الأكْمَهُ : المولود أعمى ، وتكما : أى ذهب لايدرى أين يتو جه .
(٤) الشجر الكثيف الملتف .
(٥) الربى ، مفردها ربوة : وهو ما ارتفع منها .
(٦) الكواسر ، مفردها كاسرة ، وهى غالباً ما تطلق على الطيور الجارحة ، اشدة الافتراس .

فلما سمع الحمار هذا الحوار رغب فى الخلاص من الاقتناص[١] ، والبلاء الذى هو فيه ، والشقاء الذى يؤلمه ويؤذيه ؛ فسلم قياده إلى ابن آوى ، وقال : سر بنا إلى ما ذكرت من مأوى لئلا يرانا رَصَدُ ، أو يشعر بنا أحد ، ثم أعجلا فى السير ، وأشبها فى سيرهما الطير ، فتقدم الحمار سابقا وأعيا ابن آوى لاحقا ، فخدع وغالط وخلط وبالط[٢] ، ونادى الحمار إلىَّ إن كنت تعبت فاركب علىّ . فقال الحمار : بل أنت راكب ولا تتعب فظفر[٣] ابن آوى على الحمار ، وصار لا يقر له قرار ، وابن آوى يهديه الطريق وهو فى نهيق وشهيق .

فلما قربا من الأجمة[٤] ؛ فتح عينه ذلك الأكمه ، ورفع آذانه وبصره ؛ فرأى الذئب قاعدا منتظره ، فعرف إن تلك مكيدة نصبها ابن آوى لصيده . فقال : تأتى الخطوب وأنت عنها نائم .

ثم استحضر عقله المفقود واستعمل عقله الموجود ، وعرف أنه غفل عن نفسه ، وقد سعى برجليه إلى رمسه[٥] ، وانتقل من المرض الذى هرب منه إلى نكسه ، ومن خموله وذله إلى تعسه ونكسه ، فتردد متفكرا ، وأقام متحريا متحيراً ، فقال له ابن آوى : مالك أسُرِعْ ، فقد أحسن اللّه حالك ، وأمن فكرك ، وأنعش بالك ، وجعل إلى عافية الخير مآلك ؛ لئلا يدركنا أحد ، أو يلحقنا ضرر ونكد .

فقال الحمار : يا أخى شاهدتُ قدود أغصان رشقة ونشقتُ روائح ريح عبقة ، وسمعت خرير الأنهار ، وأصوات البلابل والهزار[٦] ، فندمت حيث

---

(١) أى المصيدة والشرك الذى نصب له .

(٢) بالغ فى الخداع .

(٣) وثب .

(٤) الشجرة الكثيفة .

(٥) الهلاك .

(٦) الهزار : طائر صغير له صوت جميل .

لم أقطع علائقى ، وأودّع جارى ومرافقى ، وأبِتْ مالى من التعلقات وأجىء وما ورائى التفات ، وأنا إن ولجت هذه الغيضة ، ورعيت مروج[1] هذه الروضة ، ورأيت مافيها من المنتزهات ألهتنى عمَّا لى من تعلقات ؛ فتضيع إذ ذاك مصلحتى ، وتذهب عند جيرانى ودائعى وذخيرتى ، ولا أقدر على مفارقة هذا المقام النزِه ، ومجاورة مثلك أيها الجار الفكه ، وقد عزمت على الرجوع لأصحب ما لى من مال وأثاث مجموع ، وأجىء وقلبى مطمئن وخاطرى عن الالتفات مستكن .

قال ابن آوى : اترك مالك ولا تؤخر أوقات السرور ، وساعات الفراغ والحبور ، وما خلفته فهو لك وتلافيه أمر مستدرك ، ولا بأس أن تدخل هذا المكان وتدور فى هذا البستان وتتعاهده ، ولو مرة وتشاهده ولو نظرة ، ثم تعود وتفعل ما تريد ، وبالجملة فتأخير أوقات السرور غير محمود ولا مشكور .

فقال الحمار : الأمر كذلك وقاك الله شر المهالك ، ولكن أقوى الدواعى فى هذه القضية ، والحامل على الرجوع وإن كان بلية ؛ وصية من أبى كانت عندى خفية ، كنت أعمل بها وأمشى فى دربها ، ولا أفارقها فى نومى ولا يقظتى ، وكنت جعلتها حرزا أعلقه فى رقبتى ، وإذا لم تكن معى فى مسيرى ومضجعى ، لا يقر لى قرار ولا يأخذنى اصطبار ، ويعترينى شبه الأُوام[2] وأرى خيالات فاسدة فى المنام ، وتغلب على دماغى فنون السوداء ، ولا أجد منها دواء لذلك الداء ، وفيها وصايا نفيسة لروح العقل بمنزلة الأعضاء الرئيسة ، فإذا حصلت على تلك الوصية المُعينَّة فقضية ما سواها هينة ، ثم ألوى راجعا لا سامعا لابن آوى ولا طائعا .

---

(١) المروج ، مفردها مرج : الأرض الخضراء الشاسعة .

(٢) ألم الرأس .

فافتكر ابن آوى أنه إذا ترك الحمار وحده فوته قصده وخيب الله كدَّه ، وأبطل حيله وجهده فرأى لنفسه المنفعة أن يرجع معه ، فربما ينجع[1] سعيه ويسلب من الحمار وعيه.

فقال : يا أخى شوقتنى بهذه القضية إلى الاطلاع على تلك الوصية لاستفيد منها ، وآخذ حظى من الفضل عنها فلابد من مصاحبتك والذهاب معك ومرافقتك ، فقال الحمار : لادافع ولا مشاقق ولا مانع أن تكون لى مُرافقك .

فقال ابن آوى : فهل فى حفظك منها شىء ، فإن كان فألقه إلىَّ لنتذاكر فى الطريق ، ولا يؤثر فينا التعب والضيق .

فقال : نصيحة واحدة هى بصدقى شاهدة ، وهى كلمة مجملة فوائدها فيها مجملة ، وهى إن أبى قال لى : إياك أن تفارق هذه الوصية ، فإن فارقتها وقعت فى بلية ، وسأخبرك بسائرها فى المسير إذا تذكرت أيها البصير . ثم سار قليلا وأفكر طويلا وقال : وهذه أخرى سنحها ذكرى وارتضاها فكرى وهى أذا : وقعت فى شدة ، ورمت للخلاص منها عدة ، فتصور أصعب منها؛ يحصل لك التقصى عنها ، وتهن عليك وتعدها نعمة أسديت إليك ، فتشتغل بشكرها وتستأنس بذكرها .

فقال ابن آوى : أحسنت يا حمار وهذا مقام الأخيار والصالحين والأبرار . ثم سار سيرة رائثة[2] وقال : والله هذه نصيحة ثالثة . فقال : قل واسلم وطل .

فقال : لا تحسب أن الصديق الجاهل خير من العدو العاقل ، فإن عِلْم العدو العاقل خير لك من جهل الصديق الجاهل .

---

(١) أفلح .

(٢) متمهلة .

فقال ابن آوى : ما أحلى كلامك ، وأعلى فى اللطف مقامك وأنزه منادمتك وأفكه مكالمتك ، بالله شَنِّفْ[1] المسامع فإنى لك بقلبى وجوارحى سامع .

فقال : مهلا حتى أتذكرها وأتصورها وأتفكرها . وانتهى أمر ابن آوى لى تعسه ، وساقه القضاء إلى رمسه ، فوصل إلى الضيعة وقد وقع ابن آوى فى ضيعة ، فألح على الحمار .

فقال : أخبرنى فما بقى لى اصطبار .

فقال : قال لى أبى بكلام فصيح عربى : لا تجعل مقامك ومقيلك[2] بمكان يكون فيه ابن آوى دليلك ، والذئب فيه جارك وخليلك ، وإن جعلت لك فى مثل هذا المكان ساحة ، فما تُرى يكون لك فيه من الراحة ، وإن أردت أن تخلص من هذا المكان فانصب الآذان ، وارفع ذكر الله بالأذان ، فإنه ينجيك من الضيق ، ثم رفع عقيرته بالنهيق فسمعه معارفه من الكلاب ، فسارت إليه مستبشرة بحسن الإياب[3] ، وسارعت إليه واجتمعت حواليه فما شعر ابن آوى إلا وهو متورط فى البلوى ، فطفر للهرب فأدركه من الكلاب الطلب فاحتوشته وانتوشته[4] ، واختطفته واقتطفته ووزعته ومزعته ، ومرشته وقرشته ، فلم تبق منه عيناً ولا أثراً ، وذهب دمه فى تدبيره هدراً .

وإنما أوردت هذا المثال ؛ وعرضته على الرأى العال ؛ ليعلم أن الاغترار بالكلام محال والإصغاء إلى الحكايات والقول البطّال ، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمل فى مآل مقاصدها وفحاويها ، والاعتماد على القضايا المزخرفة والركون إلى الأمور المسفسفة[5] ، لا يفيد سوى الندم وزلة القدم .

---

(١) شنف الكلام : أى زينه للسامع .
(٢) المقيل : مكان الاستراحة والنوم .
(٣) العودة .
(٤) أى تناولته .
(٥) الحقير منها

والأصل فى الولايات والمناصب ؛ التفكر فى الخواتيم ، والتأمل فى العواقب ، وإلا فليس فى ذلك سوى إضاعة العمر والمصير إلى المهالك ، وقلت شعرا :

وَأَسْعَدَ مَنْ يُكْسَى الولايةَ مَنْ إذَا نَضَا ثَوْبَها يكسى الثَّناء المُطَرَّزَا

فلما انتهى الكلام إلى هذا المقام ، ورأى الوزير برأيه المنير مافى هذه الفصول من الفضل دون الفضول ؛ اعترف للحكيم حسيب بالفضل الحسيب والرأى المصيب ، وحسن النصيحة والبيان ، وصحة الدليل والبرهان ، فأذعن للحق وأناب إلى الصدق .

وقال : لقد أتيت النصيحة من بابها ، وأوصلتها إلى طلابها ، وكل كلام قررته وبيان حررته ، إنما هو شكر أحرزته ، وطريق سداد بينتها وسبيل رشاد أوضحتها ، وباب صواب فتحته ، وميزان إحسان أرجحته ، وعلى كل عاقل ومستمع وناقل ، أن يقتدى بهذه النصائح ويوصلها إلى السائح والسابح ، ويغنم فوائدها وعوائدها وموائدها[1] ، ويعمل بموجبها ولا يخرج عن مذهبها.

ثم إن الملك لما أصغى إلى هذا الفصل ، وفهم ما تضمنه من حكمة وفضل ، أفرغ على أخيه وأهله وذويه لباس الإنعام ، ووفّاه بمزيد الإكرام ، وقال: لقد قمت أيها الأخ الشقيق فى تدقيق النصح بالتحقيق ، وحللت المشكل وجلوت الطريق ، وأديت حق الفتوة وواجب المروءة وشرائط الأخوة ، والآن قد حكمناك فى ولايتنا ، وولينـاك على حكامنا وقضاتنا ، وبسطنا يدك فى الأقاليم ، وأطلقنا لسانك فى التعليم ، فتحكم فى الرؤوس والأطراف ، واحكم فى الآفاق والأكناف ، واشرع فيما أنت بصدده ، ولا تتقيد بالمخالف ولَدَدَه[2]، وكن منشرح الصدر ، قوى الظهر ، قرير العين ، مبسوط اليدين ، مبارك

(١) موائد ، مفردها مائدة ، وقصد الغنيمة .

(٢) اللدد : العناد والمخالفة .

الطلعة ، حسن السيرة ، صبيح الوجه ، طيب القلب والسريرة ، طويل العضد والساعد ، ممدوحاً عند الغائب والشاهد ، خلي البال هنى الحال ، فإنك من بطن كريم وفخذ على الطاعة مستقيم[1] ، وفى الفضائل ذو قدم وصدق ، وفى الصناعة ذو صنع وحذق ، فلا تتوان فيما عزمت عليه وقصدت إليه ؛ من النصائح الملوكية ، والفصول العلمية والعملية ، وأتحفنا بتلك الحكم السنية، والخصال البهية ، والشمائل المرضية ؛ فإنها لذة الأشباح[2] وغذاء الأرواح، والطراز المضىء[3] على خُلَع المساء والصباح .

فنهض الحكيم من مجتمعه ، وقبل ثغر الأرض بثغر جبينه وفمه ، وامتثل المراسيم الشريفة ، واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفة وترتيبها بالعبارات اللطيفة ، واستطرد فى تأليف هذه الحكم من حكايات ملك العرب إلى وصايا ملك العجم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله على كرمه الأتم ، وإحسانه الأعم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) البطن والفخذ : الحى والقبيلة ، وأراد الأصل الطيب .

(٢) الأشباح ، مفردها شبح : الجسد .

(٣) أى العلامة المنيرة .